ATLANTIC COUNCIL
EgyptSource
RAFIK HARIRI CENTER FOR THE MIDDLE EAST

Ahmed Naje
February 6, 2012

أحمد ناجى

أمثولة قصيرة حول مخاطر وأضرار حرق الكتب

١

لدى عائلتنا تاريخ طويل في التخلص من الكتب بأشكال مختلفة.

في صغري أذكر روتين دورى يتكرر على فترات متباعدة أثناء إقامتنا في مصر، كان والدى يفتح الدواليب والأدرج ويبدأ لساعات في تصنيف الكتب والمجلات والدفاتر الموجودة لديه. أعزها إلى قلبه كانت دفاتره الخاصة التي تحتوى على ملاحظته وتلخيصه لعشرات الكتب معظمها يدور في فلك بين التصوف وعلوم الدين الحركية والسياسية، ثم تأتى كتب سيد قطب ورسائل البنا ومذكرات القيادات الإسلامية المختلفة.

كان يُصنف الكتب ويُرتبها إلى مجموعات. ثم يقوم بتوزيع تلك المجموعات في أماكن سرية مُتنوعة، تبدأ من كراتين فوق السطوحِ بجوار عشش الدجاج، إلى مجموعات آخري يضعها أمانة لدى أقارب ليس لديهم نشاط سياسي. وأخيراً كتب كان يري أن وجودها خطر عليه وعلى الجميع وبإمكانه الحصول على نسخ آخري منها فيقوم بحرقها والتخلص بحرص من رمادها.

حينما كنت صغيراً لم ألتفت إلى هذا الأمر أو أفهمه، لكن طقس تجميع الكتب والأوراق ثم إشعال النار فيها فوق سطح المنزل ظل عالقاً في ذهني للأبد، حينما كنت أسأل أمى كانت تجد صعوبة في شرح طبيعة الموقف السياسي لطفلها الصغير فترد قائلة: "الكتب دى فيها قرآن وآيات ربنا، ولا يصح أن نلقيها في النفايات لذلك نقوم بحرقها."

جدى والذي كان غفيراً في أحد المصانع كان لديه مكتبة ضخمة جداً، حكى لى والدى أنه في فترة من الفترات لم يكن لديه مال لشراء سرير، فقام برص مجلدات علوم الفلك وأشعار أحمد شوقي -كان يحفظها غيباً- ونصب منها سريراً لينام عليه أولاده. لكن لأسباب ليس محل تفصيلها هنا أصيب في فترة من حياته مع بداية الثمانيات باكتئاب حاد وتخلص في تلك الفترة من معظم مكتبته، اكتفي بعد ذلك بقراءة الجرائد أو تصفح ديوان المعري وتصفح كتب الفلك شغفه الأعظم الذي دفعه أن يسمى ابنه البكر في البداية "جالوليلو"، ثم بعد ضغوط عليه بحجة أنه اسم غير إسلامى غيره إلى ناجى واكتفي بكتابة عبارة ضخمة على جدار البيت "ناجى جالوليلو".

٢

لكن أبي لم يكن يتخلص من الكتب بسبب اكتئاب مفاجئ أو تدهور في القدرة على القراءة كجدى، بل كان يفعل ذلك حتى لا تستخدم "الكتب" كأدلة ضده في حالة مُدَاهمة المنزل أو القبض عليه. كانت تعليمات التخلص من تلك الكتب تأتى من الكبار في الجماعة لحماية الكوادر، فنسخة من "رسائل" البنا، أو "المنهج الحركى للسنة النبوية" كان يمكن استخدامها كدليل إدانة دامغ على عضويته في جماعة محظورة.

هكذا في ليالى الصيف المملة وحينما كنا نعود من إقامتنا في الكويت إلى المنصورة لم أكن أجد ما أفعله سوى قراءة كتب أنيس منصور وخالد محمد خالد ومسرحيات توفيق الحكيم، كانت هذه هي نوعية الكتب التي لا يري أبي أنها لا تمثل خطراً في حالة مداهمة قوات أمن الدولة للمنزل. لم أكن في حاجة لكتب البنا لكى أعرف الاخوان المسلمين كنت أعيش التجربة بالفعل.

٣

في الكويت كما في مصر وأكثر من مئة دولة آخري يمتد الوجود الإخوانى ليصنع شبكة من الضمان الاجتماعي لا للأفراد فقط بل تصل إلى عائلاتهم. كنت أخرج بانتظام في جلسات أسبوعية مع أطفال آخرين، معظمهم مصريين آبائهم من عائلات أو أسر إخوانية مقيمة في الكويت.

البرنامج المُعد لهذا السن في هذه الفترة يشمل إلى جانب قراءة القرآن والتعرف على السيرة النبوية عدد من الأنشطة الترفيهية يتم تنظيمها أيام الاجازات الأسبوعية بانتظام، وكطفل انتقل فجأة من قرية من مدينةِ المنصورة إلى بيئةِ جديدة كالكويت كانت مثل هذه الأنشطة مع "الأشبال" محيط دافئ مليء بالاكتشافات الجديدة، وكاسر في الوقت ذاته لأحاسيس الغربة.

٤

لكن الأمور لم تسر بالإيقاع نفسه لدى العودة مرة أخري إلى مصر. ففي قريتنا كان ينظر لى بشكل "خاص" نظراً للمكانة التي يحتلها والدى في الجماعة كطبيب ومثل أعلى للكثير من أشبال الجماعة، وهو ما لم أكن أعرف عنه شيئاً.

بطبيعته المتحفظة قليلة الكلام كان والدى لا يتكلم كثيراً على كل ما هو ماضى، ولا يتكلم إطلاقاً عن أي شيء له علاقة بجماعة الإخوان المسلمين.

حكى لى مؤخراً عن اندهاش زملائه في المستشفى -التي يعمل فيها منذ ثماني سنوات حتى الآن- حينما علموا منذ أشهر قليلة فقط بأنه "إخوانى" وذلك بالصدفة حيث بدأ يحضر لأول مرة مع "الدكاترة الإخوان" في مؤتمرات النقابة.

والدتى التي لم ترتح يوماً لجو "الأخوات" ولم تجذبها الجماعة، كانت فقط قبل الثورة حينما يظهر بالصدفة بعض قيادات الجماعة على التلفزيون تكتفي بتعليق مختصر مثل "كان صاحب أبوك قوى، وكان بيجوا البلد ويتعشوا عند جدتك".

لكن الأخوة في المنصورة وفي قريتنا، كانت عبارة الترحيب الأولى لديهم:

-أنت ابن الدكتور ناجى حجازى... ما شاء الله، ما شاء الله.

٥

سواء في الكويت أو حتى بعد عودتنا إلى مصر، كنت دائماً في مدارس خاصة تحمل في اسمها كلمتين أساسيتين "إسلامية" و "لغات".

مدرسة الهدى والنور التي قضيت فيها السنة الثالثة الإعدادية بعد عودتنا من الكويت كان واحدة من المدارس الإخوانية، أبي نفسه ساهم في انشائها في البداية، وهى جزء من قطاع المدارس والخدمات التعليمية أحد القطاعات الأساسية التي اهتم الإخوان منذ الثمانينيات بالتوسع فيها، كاستثمار اقتصادي وصورة من صور العمل الدعوى. كنا ندرس ذات المناهج التي يتم تدريسها في المدارس الحكومية، لكن مضاف إليها مادة بعنوان "قرآن كريم" بواقع حصتين كل أسبوع، ومادة آخري هي خليط من السير والنصائح الإسلامية. كما أن الموسيقي يتم استبدالها بمادة آخري باسم "أناشيد".

الآلات الموسيقية باستثناء الطبول والدفوف كانت ممنوعة ومحرمة، على جدران المدرسة لافتات ومجلات حائط تتحدث عن خطورة الاستماع للمعازف. الأناشيد التى كنا مجبرين على حفظها كانت عبارة عن مزيج من أشهر الألحان والأغاني الوطنية يتم تحريف بعض معانيها واستبدال كلمة "مصر" بكلمة "الإسلام". المدرسة بالطبع كانت تضم لفيف من أبناء القيادات الإخوانية المحلية إلى جانب طلبة مسلمين من خلفيات متنوعة.

أنتبه الآن فقط كيف أنه حتى سن الرابعة عشر لم ألتق أبداً بشخص مسيحى، كنت في عالم خاص لديه قيمة الأخلاقية وتصوراته عن الكون والفرد الصالح.

٦

الانتقال من رحم مدارس الإخوان إلى مدرسة طه حسين الثانوية الحكومية كان بمثابة السفر إلى كوكب آخر. لأول مرة هناك مسيحيين في المدرسة، وهناك مكتبة يوجد فيها كتب آخرى غير أذكار الصباح والمساء. مكتبة مكدسة بالكتب التي تتراكم فيها منذ الستينات وما أدراك ما الستينات.

العالم المثالي الخالى من الشتائم والسباب والذي يتحرك فيه الأخوة بالسواك والابتسامات الودودة بدا ضيقاً وبعيداً. مع الانتفاضة الثانية كان قد تم تصعيدى ورغم أنى كنت في المرحلة الثانوية كنت أجلس مع أخوة في الجامعة. شاركت في صياغة هتافات من تلك التي سيتم الهتاف بها في المظاهرات التي تلت مقتل "محمد الدرة". أصبحت عنصراً فعالاً في مجموعة جامعة الأزهر، ثم ظهر حيدر حيدر.

٧

جاء أحد الأخوة بعدد من جريدة الشعب ووضعه بجواره، سارت الجلسة كأى جلسة عادية. البداية بالقرآن الكريم، ثم أخ يشرح أحد الأحاديث النبوية، وثالث يقرأ ويفسر جزء من كتاب فقه السيرة، ثم فتح الأخ جريدة الشعب وأخذ يعيد بث ما هو مكتوب في الجريدة صوتياً.

كان هناك رواية لكاتب سورى يدعى "حيدر حيد" نشرتها وزارة الثقافة المصرية. وتحتوى إلى جانب الجنس على إهانات للذات الإلهية والنبي محمد –ص-. كان هذا هو تخليص الموقف، أما رد الفعل فقد كان التجهيز لمظاهرة اعتراضاً على نشر الرواية، وللمطالبة بحرقها!

حرفياً كان هذا طلب الأخ، تلقائياً اعترضت، وحيث أني في هذا الوقت كنت الشاعر الإسلامي للمجموعة، فقد رفضت أيضاً كتابة شعارات تطالب بحرق الكتاب أو أي كتاب آخر.

لا أعرف حتى الآن لماذا أخذت هذا الموقف الصارم في هذه المسألة؟

عرض على أحدهم بعض أجزاء من الرواية نشرتها جريدة الشعب، قرأتها ووصفتها بالسخيفة لكن هذا ليس مبرراً للحرق، دخلت نقاش طويل مع الأخوة تطور على ارتفاع في الأصوات، واحتدت المناقشة بينى وبين الأخ المسئول الذي أخذ منفعلاً يحذرنى من مثل هذه الأفكار. احتد النقاش أكثر فكان رده: يا تبطل الكتب التي تقرأها وترديد مثل هذه الأفكار، أو لا تجلس معنا.

انصرفت. لم أعد ثانية.